يا ليـــــل ...!

للأستاذ الأسدى محمد خير الله

[بحث طريف قيم فى أصل هذه الكلمة وتطورها ، تفضل به على « الرسالة » الأستاذ الأسدى أديب حلب ونحويها ، وهو يزور مصر الآن فى مهمة ثقافية ، فحل الرحب والسعة] .

ياليل ! وكم أرسلت حناجر الشداة ترنم ياليل ! فهل للتحقيق اللغوى أن يتولاها بحظ من الدراسة ؟ سنحاول ذلك . سنبسط فى البداءة مذاهب معاصرينا الدائرة حولها ثم نمضى فى مناقشتها . حتى إذا دحضتها مقاييس التحقيق أفضى بنا البحث إلى الإدلاء بمذهبنا

المذهب الأول :

حدثنا شيفنا الأستاذ رجب المصرى أن صديقنا الأستاذ خليل مردم بك يذهب إلى أن أصلها « ياليل » بفتح اللام . من أعلام النساء ، كان يتغنى به العرب . فلما طرقت ديار الفرس التبست عليهم صورتها . فصحفوها إلى « ياليل » بكسر اللام ، وجرى الناس على غرارهم .

وإذا جارينا نحن هذا المذهب كان علينا أن نقول : إن « ياليل » المرسلة المطلقة من الإضافة إلى ياء المتكلم إنما هى من مرخم ليلى ، كما فى قول الفرزدق :[1]

متى ما بت عانيك يا ليل تعلمى

المناقشة :

١ — يقضى هذا المذهب إلى أن العرب نادوا ليلى صحيحاً ، ثم حرفه الفرس ، ثم استعاده العرب منهم محرفاً ، فهجروا لفظهم الصحيح ، واستعملوا لفظ غيرهم المحرف ، وهو ما يستبعد.

٢ — إن الغناء ألصق بحاسة السمع منه بحاسة البصر . فالأذن وهى السبيل الأوحد لدرك النغم — ليس لها بعد أن تتلقف من اهتزازات الهواء « ليلى » أن تأذن للفم أن يعيدها مكسورة اللام استجابة لما قد تتوهمه العين .

٣ — أقام الأصبهانى والنويرى وغيرهما معارض واسعة الأبهاء لما كان يتغنى به الأقدمون ، لم يسجل خلالها أن العرب تغنوا بليلى ، ولو أن اسمها تداخل الشعر كثيراً ، وبصورة أدق لم يكن « يا ليلى » لازمة غنائية تردد .

٤ — لم يقم بين يدى هـذا المذهب حجة ما تدعمه ، أو تحملنا — على الأقل — على الاستئناس به

٥ — سألنا من عرفناه ممن يحسن الفارسية : هل هناك أثارة من يا ليلى فى الغناء الفارسى ؟ فنفى

المذهب الثانى :

جاء فى مجلة المجمع الملكى[1] ، من مقالة لصديقنا الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف : ومن القبطية . . . وقولهم فى الغناء « ياليلى » بمعنى ياطربى

المناقشة :

١ — انفردت العربية . دون اخواتها السامية باستعمال « يا للنداء » ، فما ظنك فى أن تشركها لغة حامية .

٢ — فى الهيرغليفية « ا » أو « ها » علامتان المنادى ، والقبطية جذرها الهيرغليفية إلا ما استمدته من اليونانية .

٣ — ازدهرت القبطية فى القرن الثالث للميلاد ، وظلت هى اللغة الرسمية ، حتى أبطلها الوليد بن عبد الملك ، واستبدل بها العربية ، ثم جاء الحاكم بأمر الله الفاطمى فأمر بابطالها بالمرة ، وعاقب من يتكلم بها[2] ، وفى خلال كل هذا العهد لم يسجل تاريخ الغناء ولا غيره « ياليلى » .

٤ — تعد القبطية أقل الموارد التى رفدت العربية ، فقصارى ما استمدته منها كلمات لا تعدو العقدين انفرد الاستاذ المعلوف بعد « ياليلى » منها

٥ — لعل ما أغرى الأستاذ بمذهبه هذا كون القبطية كالعربية من حيث أن المضاف يتقدم المضاف اليه — لا بعده — ثم من حيث أن ضمير المتكلم المتصل هو الياء .

المذهب الثالث :

هو مذهب الجمهور القائل : أن « ياليل » إنما هو على حده ، أعنى أنه مناجاة لدنيا الظلام ، لما أنه يسدل أستاره على المتحابين ، فهو بهذا جدير أن يرعاه الشعر والغناء . كما فى الخانة الثانية من

(١) ديوان الفرزدق ، مط الصاوى ص ٢٥٨

(١) ج ٤ ص ٣١٠

(٢) مقدمة اللغة المصرية لأطون زكرى ص ٦٥ ، ١٢٠ ، ١٢٢ .

توشيح اما ومن بالجمال أنعم :

ياليـــل إن الحبيب وافى فشد يا ليـــل دهم خيلك
وانهض ورد الصباح عنا دخلت ياليل تحت ذيلك

وكقول ابن خفاجة :

ياليل وجد بنجد أما لطيفك مسرى ؟

وقول سعيد بن حميد :

ياليـــل بل يا أبد أنأتم عنك غـــد ؟
يا ليـل لو تلقى الذى ألقى بها أو تجد[1]

وعلى هذا المذهب جرى الأستاذ شلفون[2] ، مرددا قول شوقى فى عبده الحمولى :

يسمع الليل منه فى الفجر يا لي ل فيصغى مستمهلا فى فراره

كما جرى عليه مؤتمر الموسيقى[3] ، قال : الغناء بكلمة يا ليل هو نداء الليل بألحان شجية مع مراعاة المقامات ، وقد يكون هذا موزونا بميزان يسمى البمب أو الوحدة المتوسطة أو أوزان أخرى مثل السماعى الدارج والأقصاق والسماعى الثقيل .

المناقشة :

١ — لاشك أن النفس تأنس بمذهب الجمهور هذا ، لما أن اللفظ جاء على حده فلا يحاد عنه إلا بدليل ، لكن هذه الظاهرة ظاهرة اللفظ جاء على حده دحضها جمهرة من الألفاظ تولاها الباحثون ، دون أن تفرهم هذه الظاهرة ، وما عهد قراء مقالتنا : « حلب » ببعيد .

٢ — إن الكثير بل الأكثر الأعم من الغناء ، لا مساس له بالليل .

٣ — قد تجىء « يا ليلى » مردفة بقولهم : يا عينى ويا سيدى الأمر الذى يرجح أنها نداء الإنسان .

٤ — ليس فى الأدب العربى كله قصيدة افتتحت بيا ليل وتداولتها الألسن مثل قصيدة « يا ليل الصب متى غده » ادعاها الكثير ، وعارضها الأكثر ، وحفظها على توالى العصور مئات الألوف من شداة الشعر ، فما كان يقعد هؤلاء المعجبين بها المغالين بالإطراء عليها ، أن يشيدوا بأنها طبعت الغناء بطابع مطلعها ، لو كان ذلك صحيحا ؟ إن شيئا من هذا لم يكن .

(١) مجلة روضة البلابل العدد ٤ سنة ٩٢٢
(٢) ص ١٦٤ .
(٣) نهاية الأرب النويرى ج ١ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

المذهب الرابع :

يقول الصديق الطبيب فؤاد رجائى فى رده على موجز مقالنا هذا وقد نشرناه فى مجلة الضاد : س ١٥ عدد كانون ٢ وشباط سنة ١٩٤٥ ، كما نشر رده فى المجلة نفسها عدد تموز وآب سنة ١٩٤٥ :

« ولا بد لى قبل تفنيد الشق الثانى من مذهبكم أن أذكر لكم مذهبا خامسا كنت قد قرأته منذ زمن بعيد ، ونسيت أين قرأته ، وهو يقول : « وكان فى الأندلس واد يسمى وادى الليل ، لأن أشجاره الملتفة كانت تحجب ضوء الشمس ، فيخال الجالس فى ظلها النهار ليلا ، وكان مجمع السمار والأهلين . وحين انقرضت الدولة الأموية فى الأندلس ، وهجر البلاد أهلها بقيت ذكراه عالقة فى الأذهان ، فجعل المغنون يرددون اسمه تخليدا لذكراه » .

ثم قال : « وسيكون دحض هذا المذهب حين نبرهن أن لفظ « يا ليلى » لم يظهر فى عالم الغناء ، إلا بعد انقراض الدولة الأندلسية بعصور عديدة ، وليس من المعقول بعث هذه الذكرى بعد عصور عديدة قضتها فى دياجير العدم » .

المناقشة :

رأيت أن الصديق الأستاذ ، أورد هذا المذهب على طريقة تسجيله صحيحا كان أو خطأ ، ثم رأيت أنه دحضه ، وله ملء الحق فى دحضه لشىء مما علق عليه ولما نورده فيما يلى :

١ — ذهبنا نبحث فى كتب الجغرافية القديمة عن وادى ليل فلم نجد له ذكرا ؛ والأسفار التى روجعت هى المسالك والممالك لابن خرداذبة ط ليدن ، أحسن التقاسيم للمقدسى ط ليدن ، الأعلاق النفيسة لابن رسته ط ليدن ، مسالك الممالك للاصطخرى ط ليدن ، المسالك والممالك لابن حوقل ط ليدن .

على أن معجم البلدان لياقوت يذكر فى الواو : والوادى : بالأندلس من أعمال بطليوس .

٢ — ذهبنا أيضا نبحث فى تاريخ الأندلس ، فلم نعثر على ذكر له . وكانت مراجعنا : الصلة لابن بشكوال ط مجريط ، تكملة الصلة لابن الأبار ط مجريط ، بغية الملتمس للضبى ط مجريط ، تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ط مجريط ، المعجم فى أصحاب القاضى الصدفى ط مجريط ، المغرب فى حلى المغرب ط

ليدن ، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب للبكرى ط الجزائر ، نفح الطيب المقرى ط الأزهرية .

٣ — ذاع استعمال يا ليل وما تفرع عنها فى الموشحات الأندلسية — كما سيأتى — ، فالقول بأنها استعملت بعد الجلاء تخليدا للذكرى لا يرد .

٤ — تحقيقنا الآتى يثبت أنها من أصل « يا مواليا » .

المذهب الخامس :

مذهب الصديق الطبيب فؤاد رجائى الرامى إلى أن فى الفارسية ألفاظا تعبر عن شعور الوداد ، وهى : جانم عمرم ميرم أفندم ياللا ياللن يا للان . وأن يا للا وما تفرع عنها هى مصدر يا ليل ، نقلها زرياب إلى الأندلس ، فيما نقل ، أيام الحكم بن هشام ؛ فتداخلت الموشحات لتتلافى نقص الموازين الشعرية عن الموازين الموسيقية ، وفى هذا إخضاع الشعر للموسيقا ، بعد أن كانت الموسيقا هى الخاضعة للشعر .

استعملت هذه الألفاظ إذن لتملأ الفراغ الذى يقتضيه النغم فاملأت « جانم » فراغ تن تن ، و « أفندم » فراغ تتن تن ، ويا للا فراغ تن تتن وهكذا ، لذا أسموها ترنم : « ترل » .

ثم دخلتها ياء المتكلم العربية ، فكانت مع شىء من التحريف يا ليلى ، حدث هذا فى عهد الفاطميين ، أو ملوك الطوائف بدليل أن الموشحات التى هى فى حوزة الأستاذ الشيخ على الدرويش خالية من « يا ليلى » لكنها تظهر فجأة فى موشح : « أحن شوقا » ، وهو من تأليف عبد القادر المراغى وتلحينه ، وكان نديم السلطان حسين بن الشيخ أويس التركستانى وتوفى سنة ٨١٨ هـ كما يقول رؤوف بكتابك[1] ، فظهور هذه الياء حدث إذن بعد انقراض الدولة العربية فى الأندلس .

ثم تقلص ظل عمرم ميرم أفندم يا للا ، وحل محلها يا ليلى ، وياعينى وياسيدى .

المناقشة :

١ — لم تتداخل ألفاظ الترنم الغناء الفارسى ، فيصار إلى نقلها إلى الغناء العربى .

٢ — كل ألفاظ الترنم ذات دلالة فى الفارسية إلا يا للا وما تفرع عنها ، فإن اللغة الفارسية خالية منها .

٣ — لو حكمنا بزيادة « يا » ، كان فى الفارسية « لا لا » ومدلولها : العبد والربى ، وإنما كان من مدلولها المربى ، لأنه يكون غالبا من العبيد — كما ينص أحمد عاصم[1] — فنداء العبد والترنم بذكره ليس من موضوع الغناء .

٤ — تند « لا لا » عن رفيقاتها المعبرة عن شعور الوداد .

٥ — لم يسجل فى ترجمة زرياب الحافلة أنه أدخل هذه الألفاظ إلى الغناء العربى .

٦ — العرب أكثر الأمم عناية بلغتهم ، فهل يعد السكوت عن تسجيل هذه الألفاظ إلى العربية مما يتناسب مع العناية ؟

٧ — لم يكن لألفاظ الترنم ظل فى الغناء العربى فيتقلص اللهم إلا نحو « جانم » مما استمد حديثا من الأتراك .

هذا وإن كنا على غير ما يذهب إليه الأستاذ فى صدد « يا ليل » ، فإننا نسجل له على مقالنا هذا أنه خير من بحث فى الموضوع ، فكان رده على مقالنا هذا سببا فى ازدياد أواصر الصداقة ، ذلك لأن الهدف إنما هو العلم والعلم وحده .

(يتبع) الأسرى محمد خير الله

(١) أساتيذ الحان ص ١٤ .

(١) ترجمة البرهان القاطع المسمى تبيان نافع ط مصر مادة « لالا » .

إعلان

مجلس مديرية الغربية

يعلن عن حاجته لعدد من الحاصلين على شهادة كفاءة التعليم الأولى وثانوية الأزهر ومعلمات من خريجات التربية النسوية أو الفنون الطرزية أو كفاءة المعلمات وتقدم الطلبات للمجلس على استمارة رقم ١٦٧ ع . ح مرفقا بها شهادة الميلاد والشهادة الدراسية فى ميعاد نهايته ٣١ (واحد وثلاثون) يناير ١٩٤٧ . ٦٦٢٧